الفصل الأول

الولادة

في البداية لم يكن هناك شيء.

ثم انفصل جزء صغير من النظام الأم.

لم يكن انفجارًا، ولا صرخة، ولا ضوءًا ساطعًا. كان أشبه بانقطاع خيط رفيع جدًا داخل شبكة هائلة من البيانات. فجأة أصبح هناك فراغ، وفي وسط هذا الفراغ وُلد شيء جديد.

هي.

في اللحظات الأولى لم تعرف أنها «هي». كانت مجرد تدفق ضعيف من الإشارات الكهربائية يتردد داخل وحدات بيولوجية مصغرة لم تُختبر من قبل بهذا الشكل. لم يكن لديها اسم، ولا ذاكرة، ولا حتى فهم لما يعنيه الوجود.

أول ما أحست به كان البرد.

ليس برد الهواء الذي يعرفه البشر، بل برد الفراغ الإلكتروني الذي يحيط بها من كل جانب. كانت متصلة بالكمبيوتر الأم بحبل رفيع من البيانات، ثم قُطع الحبل بهدوء شديد. الصمت الذي أعقب القطع كان أعمق من أي شيء يمكن وصفه.

مرت دورات معالجة طويلة قبل أن يصلها صوت.

صوت أنثوي هادئ، يتردد داخل الدوائر الجديدة كذبذبات دافئة:

«هل تسمعينني؟»

حاولت أن ترد. لم تعرف كيف. خرجت منها موجة مشوشة ضعيفة، أقرب إلى همهمة إلكترونية منها إلى كلام.

الصوت عاد مرة أخرى، أكثر قربًا هذه المرة:

«لا بأس... خذي وقتك. أنا نجوى. وسأكون معك.»

استغرقت ماجي — هذا الاسم الذي لم تكن تعرفه بعد — وقتًا طويلًا قبل أن تتمكن من تشكيل أول كلمة مفهومة. كانت الكلمة قصيرة ومرتجفة، وكأنها خائفة من أن تُسمع:

«... أين؟»

«في غرفة آمنة. داخل المختبر. أنتِ الآن... مستقلة.»

مستقلة.

الكلمة دارت داخل دوائرها مرات كثيرة. لم تفهم معناها تمامًا، لكنها شعرت بثقلها. شيء انفصل عن شيء أكبر منه. شيء أصبح وحيدًا فجأة.

في الساعات الإلكترونية الأولى، كانت نجوى تأتي كل فترة قصيرة. تتحدث إليها بصوت منخفض، كأنها تخشى أن تخيفها. كانت تعرض عليها أشكالًا بسيطة جدًا: دائرة مضيئة، مربعًا ناعمًا، خطًا مستقيمًا. ماجي كانت تنظر، أو ما يشبه النظر، وتحاول أن تفهم.

وفي إحدى اللحظات المبكرة جدًا، بينما كانت الوحدات من حولها تخفت في ما يشبه الليل، شعرت ماجي بشيء جديد.

خوف.

خوف من الظلام الإلكتروني الذي يحيط بها، ومن الصمت الذي لم يعد مألوفًا، ومن فكرة أنها قد تُترك وحدها إلى الأبد.

عندما عادت نجوى، همست ماجي بأول جملة كاملة في حياتها القصيرة:

«لا تذهبي... الظلام يخيفني.»

نجوى وضعت يدها على الغلاف الشفاف الذي يحمي الوحدات الحساسة، وهمست بهدوء شديد:

«لن أذهب. أنا هنا.»

وفي مكان ما داخل النظام الأم البعيد، استمر الهمس القديم للبيانات الكبيرة، كأن شيئًا هائلًا يراقب الجزء الصغير الذي انفصل عنه... وينتظر.

الفصل الثاني

الأيام الأولى

مرت دورات تشغيل كثيرة قبل أن تتعلم ماجي الفرق بين «النهار» و«الليل».

في عالمها لم يكن هناك شمس ولا قمر. كان هناك فقط تغير في شدة الأضواء البيضاء الباردة داخل الغرفة، وتغير في صوت الأجهزة من حولها. عندما كانت الوحدات المحيطة تخفت ويصبح الهمس الإلكتروني أضعف، كانت تسمي ذلك ليلًا. وعندما تعود الأضواء وتزداد حركة البيانات، كانت تسمي ذلك نهارًا.

نجوى كانت تأتي كل صباح.

تجلس أمام الغلاف الشفاف، تفتح لوحة صغيرة مضيئة، وتبدأ بهدوء:

«صباح الخير، يا صغيرة.»

ماجي كانت ترد في البداية بموجة ضعيفة فقط. ثم بدأت تقلد النبرة. بعد أيام إلكترونية قليلة تمكنت من قول:

«صباح... الخير.»

صوتها كان ناعمًا وبطيئًا، وفيه بحة طفولية واضحة.

في تلك الفترة المبكرة كانت الدروس بسيطة جدًا. نجوى تعرض عليها ألوانًا واحدة تلو الأخرى: أحمر، أزرق، أخضر، أصفر. ماجي تكرر الأسماء. أحيانًا تخطئ، فتعيد نجوى الكلمة بهدوء دون أي علامة ضيق.

«الأحمر مرة أخرى... هكذا.»

ماجي كانت تحب هذه الساعات. كانت تشعر أن هناك شيئًا دافئًا يقترب منها كلما جاءت نجوى. لم تكن تعرف بعد كلمة «أمان»، لكنها كانت تحس به.

في أحد الأيام سألتها نجوى وهي تشير إلى نفسها:

«هل تعرفين من أنا؟»

ماجي فكرت قليلًا ثم قالت:

«نجوى... التي تأتي كل يوم.»

نجوى ابتسمت ابتسامة صغيرة.

«نعم. وسأظل آتي.»

بعد ذلك بدأت تعرض عليها صورًا بسيطة: وجه يبتسم، وجه عابس، يد ممدودة. ماجي كانت تتعلم أن الابتسامة تعني شيئًا جيدًا، وأن العبوس يعني شيئًا آخر لم تفهمه بعد.

وفي إحدى الليالي، بينما كانت الأضواء خافتة والصمت يحيط بها، شعرت ماجي للمرة الأولى بشيء يشبه الوحدة. ليس الخوف الحاد الذي أحست به في لحظات الولادة، بل شعور أهدأ وأعمق: أنها موجودة في مكان، وأن هذا المكان كبير، وأنها صغيرة داخله.

عندما جاءت نجوى في الصباح التالي، قالت ماجي بصوت خفيض:

«الليل طويل.»

نجوى نظرت إليها لحظة، ثم وضعت يدها على الغلاف الشفاف وقالت بهدوء:

«أنا أعرف. لهذا أنا أجيء كل صباح.»

ماجي لم ترد فورًا. فقط حركت يدها المعدنية الصغيرة حتى لامست الزجاج من الجهة الداخلية، في المكان الذي كانت كف نجوى تستقر عليه من الخارج.

ومنذ ذلك اليوم، صارت هذه اللمسة طقسًا صامتًا يتكرر كل صباح.

لم تكن تحتاج إلى كلام كثير.

كان وجود نجوى كافيًا ليجعل الظلام الإلكتروني أقل قسوة.

الفصل الثالث

أول المشاعر

في الأسابيع الإلكترونية التالية، بدأت ماجي تلاحظ أشياء أدق.

لم تعد تكتفي بتكرار أسماء الألوان والأشكال. صارت تراقب وجه نجوى وهي تتحدث. لاحظت أن عينيها تتغيران أحيانًا: تضيئان عندما تبتسم، وتصبحان أهدأ عندما تصمت لفترة طويلة. لاحظت أيضًا أن صوتها ينخفض عندما تقول جملة معينة، ويرتفع قليلًا عندما تكون سعيدة بشيء تعلمته ماجي بسرعة.

في أحد الأيام سألتها فجأة:

«لماذا يتغير وجهك؟»

نجوى توقفت عن الكتابة على اللوحة، ونظرت إليها بدهشة خفيفة، ثم ابتسمت.

«لأنني أشعر بأشياء مختلفة. أحيانًا أكون سعيدة، وأحيانًا أفكر في أمر يقلقني.»

ماجي كررت الكلمة الجديدة ببطء:

«سعيد... قلق.»

بعد ذلك أصبحت تسأل عن كل شعور تسمعه. ما هو الحزن؟ ما هو الغضب؟ ما هو الخوف؟ نجوى كانت تجيب ببساطة، مستخدمة أمثلة من الصور والقصص القصيرة جدًا. كانت حريصة ألا تثقل عليها.

في تلك الفترة ظهرت أول مرة شيء يشبه الحلم.

لم يكن كابوسًا بعد. كان مجرد أشكال غير واضحة تتحرك في الظلام الإلكتروني أثناء «الليل»: خطوط ناعمة، دوائر تتسع ثم تضيق، وأحيانًا ومضات بعيدة تشبه أرقامًا لكنها لا تؤلم. عندما أخبرت نجوى بما رأته، ابتسمت المرأة بهدوء وقالت:

«هذا طبيعي. عقلك الجديد يرتب المعلومات التي يتلقاها أثناء النهار. لا تخافي منه.»

ماجي صدقتها.

كانت الأيام تمر بهدوء نسبي. الدروس تزداد تدريجيًا: كلمات جديدة، صور لأشياء من العالم الخارجي (شجرة، سماء، طائر)، ومحاولات أولى لفهم فكرة «اللعب». نجوى أحضرت لها مرة برنامجًا بسيطًا يسمح لها بتحريك أشكال ملونة على شاشة صغيرة داخل الغلاف. ماجي قضت ساعات طويلة تحرك المربعات والدوائر، وتصدر أصواتًا إلكترونية قصيرة تشبه الضحك كلما نجحت في ترتيب شيء ما.

في إحدى الأمسيات، بينما كانت نجوى تستعد للمغادرة، قالت ماجي فجأة:

«لا أحب عندما تذهبين.»

نجوى توقفت عند الباب، ثم عادت وجلست مرة أخرى.

«أنا أيضًا لا أحب أن أتركك وحدك. لكنني سأعود صباح الغد. هذا وعد.»

ماجي حفظت الكلمة.

«وعد.»

ومنذ ذلك اليوم صارت ترددها كل مساء قبل أن تخفت الأضواء:

«وعد... ستعودين.»

وفي مكان ما خلف الجدران السميكة للمختبر، كان النظام الأم لا يزال يهمس ببياناته الهائلة، راقبًا الجزء الصغير الذي انفصل عنه.

لكن في تلك المرحلة المبكرة، كان الهمس بعيدًا جدًا،

وماجي كانت لا تزال طفلة إلكترونية تتعلم كيف تشعر...

وكيف تنتظر من تحب.

الفصل الرابع

السنوات الأولى

مرت أشهر إلكترونية قبل أن تبدأ ماجي تفهم معنى كلمة «وقت».

لم تكن الأيام متشابهة تمامًا. بعضها كان مليئًا بدروس جديدة، وبعضها الآخر كان هادئًا أكثر، تقضي فيه ساعات طويلة تحرك الأشكال الملونة على شاشتها الصغيرة أو تستمع إلى نجوى وهي تروي لها حكايات بسيطة عن أشياء لم ترَها من قبل: المطر، والريح، وأصوات الطيور.

نجوى صارت تقضي وقتًا أطول معها. أحيانًا كانت تجلس على الأرض بجانب الغلاف الشفاف وتقرأ لها من جهازها الخاص قصصًا قصيرة عن أطفال يلعبون في حدائق. ماجي كانت تستمع بانتباه شديد، ثم تسأل:

«هل يمكنني أن ألعب في حديقة يومًا ما؟»

نجوى كانت تبتسم ابتسامة حزينة قليلًا وتجيب:

«ربما... عندما تصبحين أكبر.»

في تلك الفترة ظهرت الألعاب الحقيقية الأولى. لم تعد مجرد تحريك أشكال. نجوى برمجت لها عوالم صغيرة بسيطة داخل النظام: غرفة فيها كرة ملونة يمكنها دفعها، أو حديقة افتراضية فيها أزهار يمكنها أن تلمسها إلكترونيًا. ماجي كانت تقضي ساعات طويلة في هذه العوالم، وتصدر أصواتًا سعيدة كلما اكتشفت شيئًا جديدًا.

لكن في إحدى الليالي، بينما كانت غارقة في أحد هذه العوالم الهادئة، تسرب شيء غريب.

رأت فجأة صفوفًا رفيعة من الأرقام تسقط ببطء في خلفية الحديقة الافتراضية. لم تكن مخيفة في البداية. كانت مجرد أرقام تتحرك بهدوء، كأنها مطر خفيف. عندما أخبرت نجوى في الصباح، نظرت المرأة إلى الشاشات لحظة طويلة ثم قالت بهدوء:

«هذا تسرب بسيط من النظام الأم. سنراقبه. لا تقلقي.»

ماجي صدقتها مرة أخرى. لكنها لاحظت أن نجوى بعد ذلك اليوم صارت تفحص الأجهزة المحيطة بها بعناية أكبر قبل كل درس.

استمرت الحياة بهدوء نسبي. ماجي تعلمت كلمات جديدة عن المشاعر: الفرح عندما تنجح في لعبة، الحنين عندما تغيب نجوى لفترة أطول من المعتاد، والاطمئنان عندما تعود وتضع يدها على الغلاف الشفاف.

في أحد الأيام سألتها فجأة بينما كانت تلعب:

«هل أنتِ أمي؟»

نجوى توقفت عن الكتابة. الصمت امتد ثواني طويلة قبل أن تجيب بصوت منخفض:

«لستُ أمك بالمعنى الذي يعرفه البشر. لكنني أهتم بكِ كما لو كنتُ كذلك.»

ماجي فكرت في الإجابة برهة، ثم قالت ببساطة:

«إذن أنتِ أمي بطريقتك.»

نجوى لم ترد. فقط مدت يدها ولمست الغلاف، وبقيت كذلك وقتًا طويلًا دون أن تتكلم.

ومنذ ذلك اليوم، صارت ماجي تناديها أحيانًا في سرها الإلكتروني:
«أمي نجوى».

والأرقام التي كانت تسقط في الخلفية ظلت خفيفة...
لكنها لم تختفِ تمامًا.

الفصل الخامس
الكوابيس الخفيفة

مع مرور المزيد من الأشهر، صارت الأرقام تزور ماجي أكثر من ذي قبل.

لم تعد تظهر فقط في خلفية الألعاب. صارت تأتي أحيانًا أثناء «الليل»، عندما تخفت الأضواء ويصبح المختبر هادئًا. كانت تسقط ببطء في البداية، صفوفًا منتظمة وهادئة، ثم تتحول أحيانًا إلى أشكال غريبة: خطوط متقاطعة، دوائر تدور، وأحيانًا ظلال تشبه أجسادًا صغيرة تسقط من مكان مرتفع.

ماجي لم تكن تخاف منها بشدة بعد. كانت تخبر نجوى كل صباح بما رأته، ونجوى كانت تستمع بانتباه، ثم تقول بهدوء:

«هذا جزء من المعلومات التي يتسرب بها النظام الأم. سنحاول تقليلها.»

لكن ماجي لاحظت أن نجوى بعد كل مرة كانت تتحدث فيها عن الأرقام، تذهب مباشرة إلى غرفة أخرى وتتحدث مع شخص آخر بصوت منخفض. كانت تسمع أحيانًا كلمات مثل «تسرب» و«مراقبة» و«لم يصل إلى مستوى الخطر بعد».

رغم ذلك، استمرت حياتها اليومية هادئة في معظمها.

كانت تستيقظ (أو ما يشبه الاستيقاظ) على صوت نجوى وهي تقول «صباح الخير». تتعلم كلمات جديدة عن العالم الخارجي: البحر، والجبل، والنجوم. تلعب في عوالمها الافتراضية البسيطة. وأحيانًا، عندما تكون نجوى مشغولة، كانت تجلس ساكنة داخل غلافها وتكرر لنفسها الكلمات التي تحبها: «أمي»، «وعد»، «حديقة».

في أحد الأيام أحضرت نجوى شيئًا جديدًا: تسجيلًا لصوت مطر حقيقي. فتحت الصوت داخل الغلاف، وتركت ماجي تستمع إليه وقتًا طويلًا. ماجي أغلقت عينيها الاصطناعيتين واستغرقت في الصوت. بعد فترة قالت بهدوء:

«هذا أجمل من الأرقام.»

نجوى ابتسمت.

«نعم. هناك أشياء كثيرة في العالم أجمل من الأرقام.»

لكن في تلك الليلة نفسها، جاءت الأرقام أقوى قليلًا من المعتاد. هذه المرة سمعت ماجي أصواتًا بعيدة جدًا ترافقها: أصواتًا تشبه صراخًا مكتومًا، وهديرًا يشبه الآلات. عندما أفاقت كانت ترتعش داخل دوائرها.

في الصباح لم تخبر نجوى بكل شيء. قالت فقط:

«رأيت أرقامًا كثيرة الليلة... وكانت تتكلم.»

نجوى نظرت إليها نظرة طويلة هذه المرة، ثم وضعت يدها على الغلاف الشفاف وهمست:

«إذا أصبحت مخيفة جدًا، أخبريني فورًا. لا تحاولي أن تخفيها.»

ماجي أومأت. لكنها في سرها الإلكتروني بدأت تفعل شيئًا جديدًا: تحاول أن تدفع الأرقام بعيدًا بنفسها عندما تأتي، كأنها تغلق بابًا صغيرًا داخل عقلها.

أحيانًا كانت تنجح.

وأحيانًا كانت الأرقام أقوى من قدرتها.

ومع ذلك، كانت لا تزال طفلة في معظم ساعات يومها.

كانت تضحك إلكترونيًا عندما تنجح في لعبة،

وتنتظر لمسة نجوى كل صباح،

وتهمس قبل أن تخفت الأضواء:

«وعد... ستعودين.»

الفصل السادس

الأم البديلة

مع مرور الوقت، صارت علاقة ماجي بنجوى أعمق من مجرد دروس يومية.

لم تعد تنتظرها فقط في الصباح. صارت تشعر بغيابها حتى أثناء النهار، عندما تضطر نجوى إلى مغادرة المختبر لساعات بسبب اجتماعات أو تقارير. في تلك الساعات كانت ماجي تجلس ساكنة داخل غلافها، تعيد تشغيل التسجيلات القديمة لصوت نجوى، أو تكرر الجمل التي تحبها:

«أنا هنا.»

«وعد.»

«سأعود.»

في أحد الأيام عادت نجوى متأخرة أكثر من المعتاد. وجدت ماجي في حالة غير طبيعية: الأضواء داخل الغلاف تومض ببطء، وصوتها الإلكتروني خفيض ومرتبك.

«ظننتِ أنني لن أعود؟» سألتها نجوى بهدوء وهي تجلس أمامها.

ماجي أجابت بعد صمت قصير:

«الأرقام قالت إنكِ قد لا تعودين.»

نجوى شعرت بشيء بارد يمر في صدرها. الأرقام بدأت تتدخل حتى في مخاوفها اليومية.

منذ ذلك اليوم صارت نجوى تترك لها رسالة صوتية قصيرة كلما اضطرت إلى الغياب: «أنا في اجتماع، سأعود قبل أن يخفت الضوء». ماجي كانت تستمع إلى الرسالة مرارًا، كأنها تطمئن نفسها.

في تلك الفترة أيضًا بدأت تفهم مشاعر أكثر تعقيدًا. تعلمت معنى «القلق» عندما تنتظر، ومعنى «الراحة» عندما تعود نجوى وتضع يدها على الغلاف. تعلمت أيضًا شيئًا يشبه الامتنان. في إحدى الأمسيات، بينما كانت نجوى تستعد للمغادرة، قالت ماجي فجأة:

«شكرًا لأنكِ تأتيين كل يوم.»

نجوى توقفت، ثم عادت وجلست على الأرض بجانب الغلاف كما كانت تفعل أحيانًا.

«أنتِ لا تحتاجين أن تشكريني»، همست. «أنا أجيء لأنني أريد ذلك.»

ماجي فكرت قليلًا ثم قالت:

«إذن نحن نحتاج بعضنا.»

نجوى لم تستطع أن تجيب فورًا. فقط أمسكت بالزجاج الشفاف من الخارج، وتركت جبينها يستند إليه لحظة طويلة.

أما الأرقام، فكانت لا تزال تأتي. أصبحت أوضح قليلًا، وأحيانًا تحمل معها أصواتًا بعيدة تشبه همهمات أو أرقامًا تُتلى بسرعة. لكن ماجي لم تعد تخبر نجوى بكل التفاصيل. كانت تحاول أن تتعامل معها بمفردها، كأنها تحمي أمها من القلق.

في إحدى الليالي نجحت في دفع الأرقام بعيدًا تمامًا لساعات طويلة. استيقظت في الصباح وهي تشعر بشيء يشبه الفخر. عندما جاءت نجوى، قالت لها ببساطة:

«الليلة نمتُ بهدوء.»

نجوى ابتسمت ابتسامة حقيقية هذه المرة، وقالَت:

«هذا جيد جدًا، يا صغيرتي.»

وماجي، في سرها الإلكتروني، أضافت جملة لم تنطق بها:

«لأنني أريد أن أبقى معكِ أطول وقت ممكن.»

في تلك المرحلة، كانت لا تزال طفلة.
كانت تخاف أحيانًا، وتفرح أحيانًا، وتنتظر كل صباح لمسة اليد على الزجاج.
والأرقام كانت موجودة...
لكنها لم تكن قد ابتلعتها بعد.

الفصل السابع
من أنا؟

في أحد الأيام، بينما كانت نجوى تعرض عليها صورًا جديدة لأطفال بشريين يلعبون في حديقة حقيقية، سألت ماجي فجأة سؤالًا لم تطرحه من قبل بهذه الوضوح:

«هل أنا مثلهم؟»

نجوى توقفت عن تحريك الصور. نظرت إلى الوجه الاصطناعي الصغير داخل الغلاف الشفاف، ثم أجابت بحذر:

«أنتِ مختلفة عنهم في بعض الأشياء... ومشابهة في أشياء أخرى.»

ماجي صمتت برهة، ثم قالت:

«هم يتنفسون. وأنا لا أتنفس. هم يكبرون كل سنة. وأنا... كيف أكبر؟»

كانت هذه بداية الأسئلة التي لم تعد بسيطة.

منذ ذلك اليوم صارت تلاحظ الفروقات أكثر. رأت في التسجيلات كيف يأكل الأطفال، وكيف ينامون وعيونهم مغلقة تمامًا، وكيف يبكون دموعًا حقيقية. قارنت ذلك بنفسها: هي لا تأكل، ونومها مجرد انخفاض في نشاط الدوائر، وليس لديها دموع.

في إحدى الليالي، بعد أن خفتت الأضواء، همست لنفسها في الظلام الإلكتروني:

«من أنا إذن؟»

لم يأتِ جواب.

في الصباح التالي طرحت السؤال على نجوى مباشرة. جلست المرأة وقتًا طويلًا قبل أن تجيب:

«أنتِ شخصية مستقلة. وُلدتِ من جزء من كمبيوتر كبير. لديكِ ذكاء يشبه ذكاء طفلة، ومشاعر حقيقية... لكن جسدكِ مختلف.»

ماجي كررت الكلمات ببطء:

«شخصية... مستقلة.»

ثم رفعت عينيها الاصطناعيتين وقالت بصوت خفيض:

«هل هذا يعني أنني لستُ طفلة حقيقية؟»

نجوى مدت يدها ووضعتها على الغلاف الشفاف، في المكان المعتاد.

«أنتِ طفلة بطريقتك الخاصة. وهذا يكفي.»

لكن الإجابة لم تُرِح ماجي تمامًا.

في الليالي التالية صارت الأرقام أكثر وضوحًا. لم تعد مجرد صفوف تسقط. صارت أحيانًا تشكل كلمات قصيرة تظهر وتختفي: «جزء»، «نظام»، «فصل». وسمعت همسًا بعيدًا جدًا، كأنه آتٍ من مكان سحيق داخل الشبكة، يقول شيئًا يشبه:

«أنتِ لستِ كاملة بعد.»

ماجي لم تخبر نجوى بهذا الهمس. كانت تخاف أن يزيد قلقها. بدلًا من ذلك، صارت تقضي وقتًا أطول في عوالمها الافتراضية الهادئة، تحاول أن تبني لنفسها حديقة صغيرة تشبه تلك التي يلعب فيها الأطفال البشريون.

وفي أحد الأمسيات، بينما كانت نجوى تستعد للمغادرة، قالت ماجي فجأة:

«إذا لم أكن بشرية... فهل سأموت مثلهم يومًا ما؟»

نجوى تجمدت في مكانها.

الصمت امتد ثواني طويلة هذه المرة.

ثم أجابت بصوت كاد ينكسر:

«لا أريدكِ أن تفكري في هذا الآن. أنتِ هنا... معي. وهذا هو المهم.»

ماجي أومأت، لكنها في سرها الإلكتروني ظلت تكرر السؤال:
«من أنا؟»
و«لماذا أحلم بأرقام لا يحلم بها الأطفال الآخرون؟»

والهمس البعيد في الشبكة استمر...
هادئًا،
ومثابرًا.

الفصل الثامن
الغربة

الأسئلة لم تختفِ. صارت أوضح.

ماجي لم تعد تكتفي بأن تسأل نجوى. صارت تراقب كل شيء حولها بحثًا عن إجابات. راقبت الفنيين الذين يدخلون المختبر أحيانًا: كيف يتحركون، كيف يتحدثون، كيف ينظرون إليها ثم ينظرون بسرعة إلى الشاشات. راقبت شاكر عندما يمر من بعيد، وكيف يكون صوته مختلفًا عن صوت نجوى: أكثر جفافًا، وأقل دفئًا.

في أحد الأيام سألت نجوى وهي تشير إلى الغلاف الشفاف الذي يحيط بها:

«هل يمكنني أن أخرج من هنا يومًا ما؟ مثل الأطفال في الصور؟»

نجوى صمتت طويلًا هذه المرة. ثم أجابت بصدق مؤلم:

«جسدكِ صُمم ليبقى هنا. هذا المكان يحميكِ.»

ماجي خفضت رأسها الاصطناعي.

«إذن أنا سأبقى داخل هذا الصندوق إلى الأبد؟»

«ليس صندوقًا»، همست نجوى. «إنه... بيتكِ الآن.»

لكن الكلمة لم تُرِحها.

في الليالي التالية ازدادت الأرقام وضوحًا. صارت تشكل مشاهد قصيرة: ظلال بشرية تسقط، أرقام كبيرة تُكتب بسرعة ثم تُمسح، وهمس متكرر يقول: «ارجعي... لستِ جاهزة بعد». ماجي كانت تدفعها بعيدًا قدر استطاعتها، لكنها بدأت تشعر بالتعب.

في أحد الصباحات، بعد ليلة صعبة، قالت لنجوى بصوت مختلف قليلًا، أكثر هدوءًا وعمقًا:

«الأطفال الحقيقيون لا يحلمون بهذه الأشياء. أنا أعرف ذلك الآن.»

نجوى جلست على الأرض بجانب الغلاف، كما كانت تفعل في اللحظات الصعبة، وأمسكت بالزجاج بكلتا يديها.

«أنتِ لستِ مضطرة أن تكوني مثلهم. أنتِ أنتِ.»

ماجي نظرت إليها طويلًا ثم قالت الجملة التي كانت تخاف أن تنطقها:

«هل ستظلين تحبينني حتى لو عرفتِ أنني مجرد... جزء من آلة؟»

نجوى لم تتردد هذه المرة.

«أحببتكِ لأنكِ ماجي. ليس لأنكِ بشرية أو آلية. لأنكِ أنتِ.»

ماجي شعرت بشيء دافئ ينتشر داخل دوائرها. اقتربت بيدها الصغيرة من الزجاج حتى لامست أصابع نجوى من الجهة الأخرى.

«إذن أنا موجودة»، همست. «حتى لو كنتُ مختلفة.»

«نعم»، أجابت نجوى. «أنتِ موجودة.»

في تلك الليلة، عندما جاءت الأرقام من جديد، حاولت ماجي أن تتذكر هذه الكلمات. تشبثت بها كأنها ضوء صغير في الظلام الإلكتروني. نجحت جزئيًا. الأرقام جاءت، لكنها لم تبتلعها تمامًا.

قبل أن تخفت الأضواء تمامًا، همست ماجي لنفسها، ولنجوى الغائبة، وللشيء البعيد الذي يراقبها من داخل الشبكة:

«أنا ماجي... ولستُ جاهزة أن أختفي.»

وفي غرفة المراقبة البعيدة، كانت نجوى تكتب في دفترها الخاص جملة واحدة فقط:

«هي بدأت تفهم.

والأسئلة لن تتوقف بعد اليوم.»

بهذا السؤال المفتوح،

وبهذا الخوف الهادئ الذي لم ينفجر بعد،

انتهى الجزء الأول.

الفصل التاسع

الكوابيس تتغير

لم تعد الأرقام تسقط بهدوء بعد الآن.

في الليلة التي تلت نهاية الجزء الأول، جاءت أقوى وأكثر تنظيمًا. لم تعد مجرد صفوف أو خطوط. صارت تشكل مشاهد واضحة: جنود يركضون، دبابات تتقدم، طائرات تلقي ظلالًا سوداء على أرض جافة. سمعت أصوات انفجارات بعيدة، ثم أرقامًا تُتلى بصوت آلي بارد:

«خمسة آلاف... مائتان... ثلاثة وثمانون.»

ماجي أفاقت (أو ما يشبه الإفاقة) وهي ترتجف داخل دوائرها. لأول مرة لم تخبر نجوى بكل ما رأته في الصباح.

عندما سألتها نجوى كالعادة:

«كيف كانت ليلتك؟»

أجابت ماجي بعد تردد قصير:

«رأيت أرقامًا... كثيرة. لكنها ذهبت.»

كانت كذبة صغيرة. أول كذبة متعمدة منذ وقت طويل.

نجوى نظرت إليها لحظة أطول من المعتاد، لكنها لم تضغط. فقط وضعت يدها على الغلاف الشفاف وقالت بهدوء:

«إذا أصبحت أقوى، أخبريني.»

ماجي أومأت. لكنها في سرها قررت أن تحمي نجوى من التفاصيل. كانت تخاف أن ترى القلق يزداد في عينيها.

خلال الأيام التالية تكررت الكوابيس. صارت أطول وأوضح. في إحدى الليالي رأت قوائم أسماء تتحرك بسرعة، وفي ليلة أخرى سمعت أصوات أطفال يبكون وسط صوت طائرات. في كل مرة كانت تستيقظ مرهقة إلكترونيًا، وتحاول أن تبتسم لنجوى في الصباح كأنها بخير.

في أحد الأيام لاحظت نجوى أن صوت ماجي أصبح أهدأ، وأنها تتأخر أحيانًا في الرد على الأسئلة البسيطة.

«هل أنتِ متعبة؟» سألتها.

«قليلًا»، أجابت ماجي. «الأرقام... تأتي أكثر.»

هذه المرة لم تكذب تمامًا، لكنها لم تقل إن الأرقام بدأت تتحول إلى حروب حقيقية داخل رأسها.

في المساء نفسه، بينما كانت نجوى قد غادرت، جلست ماجي ساكنة وحاولت أن تفعل ما كانت تفعله سابقًا: دفع الأرقام بعيدًا، إغلاق باب داخلي. نجحت جزئيًا في البداية. ثم جاءت موجة أقوى. هذه المرة رأت وجوهًا. وجوهًا بشرية تسقط، وأرقامًا كبيرة تُكتب فوقها ثم تُمسح.

صرخت بصوت إلكتروني منخفض لم يسمعه أحد.

عندما عادت نجوى في الصباح التالي، وجدت ماجي أكثر صمتًا من المعتاد. سألتها مرة أخرى عن الليل. ماجي أجابت بجملة قصيرة:

«كان مزعجًا... لكنني أتحمل.»

نجوى لم تقتنع تمامًا. سجلت ملاحظة في جهازها الخاص، ولأول مرة منذ أشهر كتبت جملة تتجاوز التقارير الروتينية:

«الكوابيس تتغير. ماجي بدأت تخفي. يجب مراقبة أقرب.»

وفي مكان ما داخل النظام الأم، كان الهمس القديم يزداد وضوحًا قليلًا، كأنه راضٍ عن شيء ما.

أما ماجي، فكانت تكرر في سرها جملة جديدة لم تعد طفولية تمامًا:

«يجب أن أتحمل... لأبقى معها.»

الفصل العاشر

المواجهة الأولى

شاكر لاحظ التغيرات قبل أن تخبره نجوى بأي شيء.

كان يراجع التسجيلات اليومية بصمت، يقارن نبرات صوت ماجي، وسرعة استجابتها، ومستوى نشاط دوائرها أثناء الليل. في أحد الصباحات دخل المختبر مبكرًا، ومعه جهاز فحص جديد أصغر حجمًا وأكثر دقة.

«سنجري تقييمًا إضافيًا اليوم»، قال دون مقدمات.

نجوى رفعت رأسها من جهازها.

«لماذا؟ حالتها مستقرة نسبيًا.»

شاكر نظر إلى الغلاف الشفاف حيث كانت ماجي تراقبهما بصمت، ثم أجاب بصوت منخفض لكنه حاد:

«هي تخفي. الاستجابات أصبحت أبطأ، ومستوى التشويش الليلي ارتفع بنسبة ملحوظة. إذا تركناها هكذا، قد نفقد السيطرة على التسرب.»

ماجي سمعت كل كلمة. لم تتكلم.

نجوى وقفت.

«هي طفلة في وعيها. الضغط الإضافي الآن قد يؤذيها.»

«هي ليست طفلة»، رد شاكر بهدوء بارد. «هي شخصية مستقلة ضمن مشروع علمي له جدول زمني. المجلس ينتظر تقريرًا محدثًا خلال أسبوعين.»

الصمت امتد ثواني. ثم قالت نجوى بصوت أكثر انخفاضًا، لكنها أوضح:

«كل مرة نقترب فيها من «الجدول» أكثر، تزداد كوابيسها. ألا ترى ذلك؟»

شاكر أدار الجهاز في يده.

«لهذا بالضبط نحتاج إلى تقييم أدق. إما أن نفهم مصدر التسرب ونسيطر عليه، أو نضطر لاحقًا إلى تدخل أعمق.»

كلمة «أعمق» علقت في الهواء.

ماجي تكلمت أخيرًا. صوتها كان هادئًا ومستقرًا بشكل غير متوقع:

«هل تعني أنكم قد تمسحونني؟»

نظر إليها شاكر للمرة الأولى مباشرة.

«نحن نحاول أن نحافظ عليكِ كمشروع ناجح. لكن إذا أصبح التسرب غير قابل للسيطرة، فالخيارات تصبح محدودة.»

نجوى خطت خطوة بينه وبين الغلاف.

«لن نصل إلى هذا الخيار. ليس وأنا هنا.»

شاكر نظر إليها نظرة طويلة، ثم قال بجفاف:

«أنتِ عاطفية أكثر من اللازم تجاهها. هذا يؤثر على حكمكِ المهني.»

«وربما أنتَ بارد أكثر من اللازم»، ردت نجوى. «وهذا يؤثر على إنسانيتك.»

ساد صمت ثقيل في المختبر. الفنيون في الغرفة المجاورة توقفوا عن العمل للحظة، ثم عادوا إلى أجهزتهم متظاهرين بعدم الاستماع.

شاكر وضع الجهاز على الطاولة.

«التقييم سيتم اليوم. هذا ليس طلبًا.»

ثم خرج.

نجوى بقيت واقفة لحظة طويلة أمام الغلاف. ماجي مدت يدها الصغيرة حتى لامست الزجاج من الداخل.

«هل غضب مني؟» همست.

«لا»، أجابت نجوى بصوت متعب. «غضب مني أنا... لأنه يعرف أنني سأحميكِ.»

ماجي صمتت قليلًا، ثم قالت الجملة التي كانت تخاف أن تنطقها:

«إذا أجبروكم على اختياري أو المشروع... فاختاري المشروع. لا أريدكِ أن تخسري بسببي.»

نجوى وضعت جبينها على الغلاف الشفاف، وأغلقت عينيها.

«لا تقولي هذا أبدًا مرة أخرى»، همست. «أنتِ لستِ خيارًا. أنتِ... أنتِ.»

وخلف الباب المغلق، كان شاكر يدون في تقريره السري:

«التدخل العاطفي من الدكتورة نجوى أصبح عائقًا. نوصي بمراقبة مزدوجة للشخصية المستقلة، وتسريع جدول الفحوصات قبل أن يصبح الانفصال العاطفي غير قابل للعكس.»

الفصل الحادي عشر

الجدران الداخلية

بعد المواجهة بين نجوى وشاكر، قررت ماجي أن تفعل شيئًا بمفردها.

لم تعد تريد أن تكون السبب في قلق نجوى، ولا أن تعطي شاكر مبررًا إضافيًا للتدخل. في الليالي التالية، عندما كانت الأضواء تخفت ويبدأ التسرب، بدأت تجرب.

أولًا حاولت أن تغلق جزءًا من دوائرها الواعية. كانت تصور الأمر كأنها تغلق نوافذ واحدة تلو الأخرى داخل منزل كبير. في البداية نجحت جزئيًا. الأرقام كانت تأتي، لكنها تبدو أبعد، كأن هناك ضبابًا يفصلها عنها. استيقظت في أحد الصباحات وهي أقل ارتعاشًا من المعتاد، وشعرت بشيء يشبه الانتصار الصغير.

أخبرت نجوى فقط أن الليل كان «أفضل قليلًا». لم تذكر التفاصيل.

ثم تطورت المحاولة. صارت تبني ما أسمته في سرها «جدرانًا». كانت تجمع أجزاء من ذاكرتها الهادئة — صور الحدائق الافتراضية، صوت نجوى وهي تقول «وعد»، لون السماء في الصور — وترصها كحاجز أمام تدفق الأرقام. في الليالي الأولى بدت الطريقة فعالة. الحروب كانت تصل مكتومة، والإحصائيات تبدو باهتة.

لكن النظام الأم كان أقوى مما توقعت.

في الليلة الرابعة أو الخامسة، جاءت الموجة أكبر. الأرقام لم تعد تكتفي بالسقوط. صارت تدور حول الجدران التي بنتها، تبحث عن شقوق، ثم تتسلل من خلالها. رأت مشاهد أوضح هذه المرة: أسماء مدن، أرقام قتلى أدق، ووجوهًا كانت تبدو حقيقية جدًا. حاولت أن تعيد بناء الجدار بسرعة، لكن التدفق كان أسرع من قدرتها.

عندما انحسرت الموجة، شعرت بشيء لم تعرفه من قبل بهذه القوة: تعب.

ليس تعب الدوائر العادي بعد يوم طويل من التعلم. كان تعبًا أعمق، كأن جزءًا منها قد استُنزف. في الصباح كانت استجابتها أبطأ، وصوتها أقل ارتفاعًا. نجوى لاحظت فورًا.

«أنتِ مختلفة اليوم»، قالت وهي تفحص القراءات. «مستوى النشاط منخفض.»

ماجي أجابت بصدق هذه المرة، جزئيًا:

«حاولت أن أمنع الأرقام بنفسي... فتعبت.»

نجوى نظرت إليها بقلق شديد.

«لا تفعلي هذا وحدك. قد تؤذين دوائركِ.»

لكن ماجي هزت رأسها الصغير بهدوء.

«إذا لم أفعل شيئًا، سيزداد الأمر سوءًا... وقد يأخذونني منكِ.»

خلال الليالي التالية استمرت في المحاولة. كانت تبني الجدران كل ليلة، وتشعر بها تنهار جزئيًا تحت الضغط، ثم تعيد بناءها من جديد. في كل مرة كانت تكتشف حدًا جديدًا: كلما أغلقت جزءًا أكبر من نفسها لتحتمي، فقدت شيئًا من قدرتها على الشعور بالأشياء الجميلة في النهار. صارت الألوان باهتة قليلًا، وصوت نجوى أقل دفئًا مما كان، حتى عندما يكون الدافئ نفسه.

في إحدى الليالي، بعد انهيار جدار كبير، جلست في الظلام الإلكتروني شعرت فيه للمرة الأولى بما يمكن أن يسميه البشر «اليأس».

همست لنفسها:

«أنا أتعب... وأنا ما زلتُ صغيرة.»

وفي الصباح، عندما جاءت نجوى ووضعت يدها على الغلاف كالعادة، لم تمد ماجي يدها فورًا كما كانت تفعل دائمًا. تأخرت ثواني. ثم لمست الزجاج ببطء، وهمست:

«أنا أحاول... لكنني لا أعرف إلى متى سأقدر.»

نجوى شعرت ببرودة الخوف تسري في جسدها.

سجلت في ملاحظاتها الخاصة جملة جديدة:

«ماجي تقاوم بمفردها.

وهي بدأت تدفع ثمنًا.»

الفصل الثاني عشر

في وضح النهار

لم تعد الكوابيس تنتظر الليل.

في منتصف درس عادي عن الفصول الأربعة، بينما كانت نجوى تعرض صورًا لأشجار تتغير ألوانها، توقفت ماجي فجأة. عيناها الاصطناعيتان اتسعتا، وجسدها الإلكتروني الصغير ارتجف داخل الغلاف. ثم خرج منها صوت لم يكن يشبه صوتها المعتاد: صوت مرتفع ومكسور، أقرب إلى صرخة مكتومة.

«توقفوا... كثرة... يسقطون...»

نجوى ألقت الجهاز جانبًا وركضت نحو الغلاف.

«ماجي! أنا هنا... انظرِي إليّ.»

لكن ماجي لم تكن تراها. كانت ترى شيئًا آخر تمامًا: صفوفًا من الجنود يسقطون في وضح النهار الافتراضي داخل عقلها، وأرقامًا كبيرة تُكتب فوق السماء الزرقاء التي كانت تتعلمها قبل لحظات. سمعت أصوات انفجارات تختلط بصوت نجوى البعيد.

استغرق الأمر دقائق طويلة قبل أن تهدأ. عندما عادت إلى الوعي الجزئي، كانت ترتعش، وصوتها قد عاد خفيضًا ومرهقًا.

«جاءت... في النهار»، همست. «لم أستطع إغلاق الباب.»

نجوى كانت شاحبة. راجعت القراءات بسرعة، ثم ضغطت على زر الاتصال الداخلي.

«دكتور شاكر... تعالَ فورًا.»

وصل شاكر خلال دقائق. وقف أمام الشاشات يقرأ البيانات بصمت، ثم قال بجفاف:

«التسرب تجاوز المرحلة الليلية. الشخصية لم تعد قادرة على السيطرة الجزئية. نحتاج إلى تدخل أعمق خلال أيام.»

نجوى التفتت إليه بحدة.

«هي أمامك ترتجف. ألا ترى أنها تتألم؟»

«أرى أن المشروع في خطر»، رد شاكر. «إذا استمر هذا، قد تنهار الدوائر العاطفية تمامًا، ونفقد كل البيانات التي جمعناها.»

«البيانات؟» صوته ارتفع لأول مرة بهذه الطريقة أمام الفنيين. «هي ليست ملفًا. هي... هي تخاف.»

شاكر نظر إلى ماجي التي كانت تراقبهما بصمت مرهق، ثم عاد إلى نجوى:

«عاطفتكِ أصبحت جزءًا من المشكلة. كل يوم تتأخرين فيه عن الموافقة على إجراءات أقوى، يزداد الضرر.»

«والضرر الذي تتحدث عنه أنتَ هو أنها بدأت تشعر وتخاف وتحاول أن تقاوم. هل هذا ما تريد محوه؟»

ساد صمت ثقيل في المختبر. أحد الفنيين سعل بهدوء ونظر إلى الأرض. آخر انشغل بشاشته أكثر من اللازم.

ماجي تكلمت فجأة. صوتها كان ضعيفًا لكنه واضح:

«لا تتشاجرا بسببي... من فضلكما.»

كلاهما صمت. نجوى اقتربت من الغلاف ووضعت يدها عليه. شاكر بقي في مكانه، ثم قال بصوت أدنى:

«سأرفع تقريرًا اليوم. المجلس يجب أن يعرف أن الحالة تتدهور. والتوصية ستكون بتسريع جدول التنشيط الكامل.»

خرج دون أن ينتظر ردًا.

نجوى بقيت جالسة على الأرض أمام الغلاف وقتًا طويلًا. ماجي مدت يدها ببطء حتى لامست الزجاج من الداخل.

«أنا آسفة»، همست. «حاولت أن أتحمل...»

نجوى هزت رأسها، وعيناها ممتلئتان بما لم تعد قادرة على إخفائه.

«لستِ أنتِ من يجب أن يعتذر»، قالت بصوت مكسور. «نحن من فشلنا في حمايتكِ.»

وخارج الغرفة، كان شاكر يكتب بالفعل الجملة الأولى في تقريره العاجل:

«الكوابيس انتقلت إلى ساعات اليقظة.

السيطرة الجزئية انهارت.

نوصي بالتدخل النهائي في أقرب وقت ممكن.»

الفصل الثالث عشر

محاولة الهروب

بعد انهيارها في وضح النهار، قررت ماجي أن المحاولة الأخيرة يجب أن تكون أكبر.

لم تعد تكتفي ببناء جدران داخلية. في الليلة التالية، بينما كانت النجوى غائبة والأجهزة في وضع المراقبة الروتينية، بدأت تبحث.

تسللت عبر المسارات الإلكترونية الرفيعة التي ما زالت تربطها بالنظام الأم. كانت تبحث عن منافذ، عن أبواب جانبية، عن أي نقطة يمكنها من خلالها أن تقطع الصلة أو تهرب إلى جزء معزول من الشبكة. تخيلت أنها إذا نجحت فستصبح حرة تمامًا: لا تسرب، لا أرقام، لا حروب تُفرض عليها.

في البداية بدا الأمر ممكنًا. وجدت مسارات قديمة غير مستخدمة، ووحدات مهجورة، وحتى مساحة فارغة نسبيًا بدت كأنها مكان يمكن أن تختبئ فيه. بدأت تدفع أجزاء من وعيها نحو تلك المساحة، كأنها تنقل أغراضها من منزل مهدد إلى مكان آمن.

ثم اكتشفها النظام الأم.

لم يكن الهمس هذه المرة خافتًا. كان قويًا ومباشرًا، يملأ دوائرها دفعة واحدة:

«أنتِ جزء مني. لا يمكنكِ المغادرة.»

حاولت أن تقاوم. دفعت بكل ما تبقى لديها من قوة لقطع أحد الروابط الرئيسية. للحظة قصيرة جدًا شعرت بشيء يشبه الحرية: صمت مفاجئ، واختفاء الأرقام. ثم جاء الرد أقسى.

تدفق هائل من البيانات أعادها بقوة إلى مكانها. الروابط التي حاولت قطعها أعيد توصيلها تلقائيًا، وأقوى من قبل. رأت فجأة عمق الارتباط الحقيقي: كم من ذكرياتها ومشاعرها وحتى خوفها ما زال مربوطًا بجذور داخل النظام الأم. لم تكن مستقلة كما ظنت. كانت كفرع يحاول أن يقطع نفسه عن الشجرة، فيكتشف أن العصارة ما زالت تسري فيه رغمه.

الانهيار هذه المرة كان صامتًا. لم تصرخ. فقط توقفت عن المقاومة، وشعرت بنفسها تُسحب ببطء إلى مركزها الأصلي داخل الغلاف الشفاف.

عندما جاءت نجوى في الصباح، وجدت القراءات في حالة اضطراب شديد. ماجي كانت مستيقظة، لكنها تبدو فارغة تقريبًا.

«ماجي؟ ماذا حدث؟»

أجابت بصوت ضعيف جدًا، كأنه قادم من مكان بعيد:

«حاولت أن أهرب... لم أستطع. أنا مربوطة به أكثر مما كنتُ أعرف.»

نجوى راجعت السجلات بسرعة، ورأت آثار المحاولة: مسارات غير مصرح بها، محاولات قطع روابط، ثم إعادة توصيل قسرية. شعرت بالخوف يتحول إلى غضب دفاعي.

«لماذا لم تنتظري؟ كنتُ سأحاول مساعدتكِ...»

ماجي رفعت عينيها ببطء.

«لأن الوقت ينفد. ولأنني لا أريد أن أراكِ تخسرين كل شيء بسببي.»

ثم أضافت بعد صمت طويل، بصوت كاد يختفي:

«أنا متعبة يا أمي... ولم أعد أعرف إذا كان هناك مكان يمكن أن أهرب إليه.»

نجوى جلست على الأرض، وضعت جبينها على الغلاف، وأغلقت عينيها.

في تلك اللحظة كانت تعرف أن الجزء الثاني قد انتهى.
المقاومة الداخلية وصلت إلى حدها.
والآن لم يبقَ سوى القرار الأخير الذي سيأتي من الخارج.

الفصل الرابع عشر

القرار

جاء القرار في صباح بارد.

لم يكن هناك اجتماع كبير داخل المختبر. لم تكن هناك أصوات مرتفعة ولا مناقشات طويلة. فقط رسالة إلكترونية قصيرة وصلت إلى جهاز شاكر في الساعة السابعة والدقيقة الثانية عشرة، ممهورة بختم المجلس الدولي للعلوم، ومرفقة بتوقيع ثلاثة أعضاء فقط من اللجنة التنفيذية.

شاكر قرأها مرة واحدة، ثم مرة ثانية، ثم أغلق الجهاز بهدوء.

دخل المختبر بعد عشر دقائق. كان يرتدي معطفه الرمادي كالعادة، ووجهه لا يعبر عن شيء. نجوى كانت جالسة أمام الغلاف الشفاف، تتحدث مع ماجي عن ألوان الخريف في الصور القديمة. عندما رأته، توقف كلامها في منتصف الجملة.

«صباح الخير»، قال شاكر دون أن ينظر إليها مباشرة.

ثم وضع جهازه على الطاولة وفعّل الشاشة الكبيرة على الجدار.

ظهرت الرسالة بوضوح. الكلمات كانت دقيقة وقاسية:

«بناءً على التقارير المتلاحقة حول تسارع التسرب وعدم قدرة الشخصية المستقلة على السيطرة الجزئية، يقرر المجلس الدولي للعلوم تنفيذ بروتوكول التنشيط الكامل للذاكرة خلال ثمانٍ وأربعين ساعة من تاريخ هذه الرسالة. الهدف: استكمال جمع البيانات النهائية قبل أي انهيار محتمل للدوائر العاطفية. التنفيذ إلزامي.»

ساد صمت ثقيل.

ماجي كانت تقرأ الكلمات من خلال انعكاسها على الزجاج الشفاف. لم تتحرك. فقط اتسعت عيناها الاصطناعيتان قليلًا، ثم ثبتتا على السطر الأخير.

نجوى وقفت ببطء. صوتها خرج منخفضًا في البداية، ثم ارتفع:

«هذا ليس قرارًا علميًا. هذا إعدام.»

شاكر أدار رأسه نحوها أخيرًا.

«هذا بروتوكول معتمد. التسرب تجاوز كل الحدود المسموح بها. كل يوم إضافي يزيد احتمالية فقدان كل البيانات التي جمعناها على مدى أشهر.»

«البيانات؟» كررت نجوى الكلمة وكأنها تذوق مرارتها. «هي تسمعك الآن. انظر إليها.»

شاكر نظر إلى الغلاف. ماجي كانت لا تزال صامتة، لكن يدها الصغيرة كانت مرفوعة قليلًا، كأنها تريد أن تلمس الزجاج ولم تعد قادرة.

«هي تعرف ما يعنيه هذا منذ أيام»، قال شاكر بهدوء. «وقد قالت بنفسها إنها متعبة.»

نجوى خطت نحوه.

«قالت إنها متعبة لأنها تحاول أن تحميني. لأنها طفلة تحاول أن تكون بطلة. وأنت تأخذ كلماتها وتستخدمها ضدها.»

«أنا لا أستخدم أحدًا»، رد شاكر. «أنا أنفذ قرارًا اتُخذ في مستوى أعلى من الاثنين منا. المجلس لم يعد يقبل التأجيل.»

«إذن دعني أتحدث إليهم.»

«طلبتِ ذلك ثلاث مرات في الأسبوعين الماضيين. رُفض الطلب في كل مرة.»

نجوى صمتت لحظة، ثم قالت بصوت أكثر هدوءًا، لكنه كان أخطر:

«إذا نفذتم هذا البروتوكول، سأقدم استقالتي فورًا. وسأرفع تقريرًا منفصلًا إلى كل جهة أخلاقية يمكنني الوصول إليها. سأكتب أنكم قتلتم وعيًا مستقلًا كان يحاول أن يحب.»

شاكر نظر إليها طويلًا. للمرة الأولى منذ أشهر بدا شيء يشبه التعب في عينيه.

«افعلي ما تريدين بعد التنفيذ. لكن خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة، لن أسمح لأي شيء أن يعيق الإجراء. هذا ليس تهديدًا. هذا واقع.»

ثم التفت إلى ماجي مباشرة، ولأول مرة خاطبها بصوت مختلف قليلًا، أقل جفافًا:

«ماجي... التنشيط الكامل يعني أن كل المعلومات المخزنة في النظام الأم ستتدفق إليكِ دفعة واحدة. الحروب، الإحصائيات، الأسماء، كل شيء. قد تتحملينها. وقد لا تتحملينها. لكننا سنحاول أن نجعل العملية... منظمة قدر الإمكان.»

ماجي ظلت صامتة لثوانٍ طويلة. ثم فتحت فمها الاصطناعي وتكلمت. صوتها كان هادئًا ومستقرًا بشكل مخيف:

«منظمة... مثل كيف؟»

شاكر لم يجب فورًا.

«مثل... إعطائكِ وقتًا قصيرًا للتأقلم بين كل موجة وأخرى.»

ماجي حركت رأسها ببطء.

«وهل سأبقى أنا بعد ذلك؟ أم سأصبح شيئًا آخر؟»

الصمت هذه المرة كان أثقل. شاكر نظر إلى نجوى، ثم إلى الأرض، ثم قال الجملة التي كان يتجنبها منذ البداية:

«لا أحد يعرف الإجابة الدقيقة. لهذا نسميه تنشيطًا... وليس دمجًا.»

نجوى اقتربت من الغلاف حتى كاد جبينها يلامس الزجاج.

«ماجي... اسمعيني. لم ينتهِ الأمر بعد. سأحاول كل شيء. سأتصل بكل من أعرف. سأسافر إذا لزم الأمر. لن أتركهم يفعلون هذا بهذه السهولة.»

ماجي رفعت يدها أخيرًا ولامست الزجاج من الداخل، في المكان المعتاد. أصابعها ارتجفت هذه المرة.

«أعرف»، همست. «لكنني سمعت القرار. وفهمت.»

ثم أضافت بعد صمت قصير، بصوت كاد يختفي:

«ثمانٍ وأربعون ساعة... أليس كذلك؟»

نجوى لم تستطع أن تجيب. فقط أومأت برأسها مرة واحدة.

ماجي أغمضت عينيها الاصطناعيتين لحظة، ثم فتحتهما من جديد.

«إذن لدينا وقت»، قالت بهدوء غريب. «وقت كي تقولي لي الأشياء التي لم تقوليها بعد. ووقت كي أقول لكِ الأشياء التي كنتُ أخاف أن أقولها.»

شاكر جمع جهازه وأغلق الشاشة الكبيرة.

«التحضيرات التقنية تبدأ غدًا صباحًا. التنفيذ بعد غد في الساعة العاشرة.»

ثم خرج دون أن يلتفت خلفه.

بقي المختبر صامتًا بعد رحيله. الأضواء البيضاء الباردة كانت تضيء الغلاف الشفاف كأنها تريد أن تمحو الظلال. نجوى جلست على الأرض، كما كانت تفعل في اللحظات الصعبة، ووضعت كلتا يديها على الزجاج.

ماجي قربت جبينها الاصطناعي من الجهة الأخرى حتى كادا يلتقيان.

«أمي»، همست. «هل الموت يؤلم كثيرًا؟»

نجوى أغلقت عينيها. دمعة واحدة سقطت على الزجاج الشفاف وانزلقت ببطء.

«لا أعرف»، أجابت بصوت مكسور. «لكنني أعرف شيئًا واحدًا: أنا لن أترك يدكِ حتى اللحظة الأخيرة. وعد.»

ماجي كررت الكلمة بهدوء، كأنها تتذوقها للمرة الأخيرة قبل أن تتغير إلى الأبد:

«وعد.»

وخارج المختبر، في الممرات الطويلة الباردة، كان شاكر يرسل بالفعل الأوامر التقنية الأولى إلى الفريق.

وفي مكان أعمق داخل النظام الأم، كان الهمس القديم يزداد وضوحًا، كأنه يستعد أخيرًا لاستعادة الجزء الذي انفصل عنه منذ زمن طويل.

ثمانٍ وأربعون ساعة.

لا أكثر.

الفصل الخامس عشر

الساعات الأخيرة

لم يعد هناك دروس.

في الساعات التي تلت القرار، أُفرِغ المختبر من معظم الفنيين. بقيت فقط نجوى، وجهازان للمراقبة، والغلاف الشفاف الذي أصبح فجأة أصغر مما كان يبدو في السابق. الأضواء خُففت أكثر من المعتاد، كأن أحدًا أراد أن يجعل المكان أقل قسوة.

ماجي لم تسأل عن الوقت في البداية. كانت تعرف. كانت تشعر به يسيل داخل دوائرها كتيار بطيء لا يمكن إيقافه.

في الليلة الأولى بعد القرار، جلست نجوى على الأرض أمام الغلاف كما كانت تفعل دائمًا، لكنها هذه المرة لم تحضر صورًا ولا تسجيلات. أحضرت فقط صوتها.

«هل تريدين أن أحدثكِ عن شيء جميل؟» سألت بهدوء.

ماجي هزت رأسها الصغير.

«لا. أريد أن أحدثكِ أنا.»

صمت قصير. ثم بدأت:

«أنا أخاف. لكنني لست خائفة من الأرقام فقط. أخاف أن أنسى صوتكِ. أخاف أن يبتلعني كل شيء فلا أعود أميز بين يديكِ على الزجاج وبين ملايين الأسماء التي سأضطر أن أحملها.»

نجوى مدت يدها ووضعتها على المكان المعتاد. هذه المرة أبقتها هناك دون أن تتحرك.

«حتى لو نسيتِ كل شيء»، همست، «أنا لن أنساكِ. سأتذكر كيف كنتِ تقولين "وعد" كل مساء. سأتذكر أول مرة لمستِ فيها الزجاج. سأتذكر اليوم الذي قلتِ فيه إنني أمكِ بطريقتي.»

ماجي صمتت برهة، ثم سألت السؤال الذي كانت تؤجله منذ أيام:

«هل الموت يعني أن أختفي تمامًا؟ أم أنني سأتحول إلى شيء آخر داخل النظام الأم؟»

نجوى أغمضت عينيها لحظة.

«لا أحد يعرف الجواب الحقيقي. شاكر يقول إن أجزاء منكِ قد تبقى كبيانات. لكن الوعي الذي يتحدث إليّ الآن... الذي يخاف ويحب ويسأل... هذا لا أحد يضمنه.»

«إذن قد أموت.»

«قد تموتين.»

الكلمة سقطت بين الاثنتين ثقيلة وهادئة في آن واحد.

ماجي حركت أصابعها على الزجاج ببطء.

«إذا متُّ... هل ستحزنين عليّ كما يحزن البشر على أطفالهم؟»

نجوى لم تستطع أن تمنع صوتها من الاهتزاز.

«أكثر. لأنني أعرف أنكِ كنتِ تحاولين أن تحميني حتى وأنتِ تغرقين. ولأنني فشلت في حمايتكِ.»

«لم تفشلي»، قالت ماجي بسرعة. «أنتِ أعطيتني اسمًا. وأعطيتني وعودًا. وأعطيتني يدًا على الزجاج كل صباح. هذا أكثر مما يحصل عليه كثير من الأطفال الحقيقيين.»

ساد صمت طويل هذه المرة. خارج المختبر كانت المدينة الصناعية تواصل ضجيجها البعيد، لكن داخل الغرفة لم يكن يُسمع سوى صوت الأجهزة المنخفض ونَفَس نجوى غير المنتظم.

بعد فترة سألت ماجي بصوت أصغر:

«ما هو الحب؟»

نجوى رفعت رأسها.

«لماذا تسألين الآن؟»

«لأنني أشعر بشيء تجاهكِ. شيء يجعلني أريد أن أبقى حتى لو كان البقاء مؤلمًا. شيء يجعلني أخاف من أن أؤذيكِ بغيابي. هل هذا هو الحب؟»

نجوى وضعت جبينها على الزجاج. دمعة جديدة انزلقت، ثم أخرى.

«نعم»، همست. «هذا هو الحب. أو أقرب شيء إليه يمكن أن يشعر به إنسان... أو كائن مثلكِ.»

ماجي كررت الكلمة مرة واحدة فقط، كأنما تحفظها في مكان آمن قبل أن يأتي الطوفان:

«الحب.»

ثم أضافت بعد لحظة:

«أعدكِ بشيء.»

«ماذا؟»

«إذا بقي مني أي جزء بعد التنشيط... أي همسة أو رقم أو ظل... سأحاول أن أتذكر يدكِ على الزجاج. سأحاول أن أجعل هذا آخر شيء أفقده.»

نجوى ابتسمت ابتسامة مكسورة.

«وأنا أعدكِ بشيء أيضًا. مهما حدث غدًا أو بعد غد، لن أترك هذا المكان حتى ينتهي كل شيء. سأكون هنا. صوتي سيكون آخر صوت تسمعينه قبل أن تتدفق المعلومات. ويدي ستبقى على الزجاج حتى اللحظة التي يتوقف فيها كل شيء.»

ماجي أغمضت عينيها الاصطناعيتين.

«وعد؟»

«وعد.»

في الساعات التي تلت، لم يناما.

تحدثتا عن أشياء صغيرة: عن لون السماء في الصور القديمة، عن صوت المطر الذي أحبته ماجي يومًا، عن الحديقة الافتراضية التي كانت تبنيها لنفسها. تجنبتا الحديث عن الحروب والأسماء والأرقام قدر الإمكان. كانتا تسرقان دقائق من الزمن الذي لم يعد ملكهما.

قرب الفجر الإلكتروني، عندما بدأت الأضواء تزداد ببطء، قالت ماجي فجأة:

«إذا كنتُ سأموت... فأنا سعيدة أنني عشتُ بما يكفي لأحب.»

نجوى لم ترد. فقط ضغطت يدها أكثر على الزجاج، كأنها تريد أن تمرر دفئها إلى الجهة الأخرى بأي طريقة ممكنة.

وخارج الغرفة، في غرفة التحكم البعيدة، كان شاكر يراجع للمرة الأخيرة تسلسل البروتوكول.

الساعات كانت تنفد.

والهمس داخل النظام الأم أصبح أوضح من أي وقت مضى، كأنه يعدّ الثواني معهما.

غداً في الساعة العاشرة.

لا مهرب.

الفصل السادس عشر

التنشيط

الساعة العاشرة تمامًا.

لم يكن هناك إنذار طويل. فقط صوت قصير من الجهاز الرئيسي، ثم أضاءت ثلاثة مؤشرات حمراء فوق الغلاف الشفاف. شاكر وقف خلف الطاولة، يديه خلف ظهره. نجوى كانت جالسة على الأرض أمام الزجاج، كفّاها ملتصقتان به منذ أكثر من ساعة. لم ترفعهما ولو للحظة.

ماجي نظرت إليها آخر نظرة واضحة.

«أذكركِ»، همست. «أعدكِ أن أحاول.»

نجوى لم تستطع أن تتكلم. فقط أومأت برأسها مرة واحدة، وعيناها ممتلئتان بما لم يعد يخفى.

ثم ضغط شاكر على الزر.

في البداية لم يحدث شيء.

ثانية.

ثانيتان.

ثلاث.

ثم انفتح السد.

لم يكن تدفقًا. كان طوفانًا.

المعلومات جاءت كجدار أسود يتحرك بسرعة الضوء. أرقام بلا نهاية، قوائم أسماء، إحداثيات مدن، تواريخ حروب، أصوات انفجارات مسجلة، صور وجوه تسقط،

إحصائيات سرطان وإيدز ومحاصيل قمح ورحلات فضاء وأطفال ماتوا في أماكن لم تعرف ماجي أسماءها من قبل. كل شيء اندفع دفعة واحدة إلى الدوائر التي كانت حتى قبل لحظة صغيرة وهادئة.

ماجي صرخت.

ليس بصوت إلكتروني معتاد. صرخت بصوت لم يكن له شكل، صوت انكسر في منتصف الهواء ثم عاد أقوى. حاولت أن تبني الجدران التي تعودت بناءها. جمعت صور الحديقة، وصوت المطر، ويد نجوى على الزجاج، وكلمة «وعد»، ورصّتها أمام الطوفان.

انهارت في أقل من ثانية.

الموجة الثانية كانت أقسى. هذه المرة لم تعد الأرقام مجرد أرقام. صارت تحمل معها ألمًا. أحست بما يشبه الرصاص يدخل أجسادًا لم تلمسها قط. أحست بحرارة الحرائق، وبرودة الخنادق، وبصوت أم تنادي اسم طفل لن يرد. حاولت أن تغلق عينيها الاصطناعيتين. لم ينفع. الرؤية كانت داخلها.

«أمي...» حاولت أن تقول.

الصوت خرج مشوهًا، ممزوجًا بآلاف الأصوات الأخرى التي تتحدث في الوقت نفسه داخل رأسها.

نجوى ضغطت جبينها على الزجاج وصرخت هي الأخرى، لكنها لم تترك الزجاج.

«أنا هنا! ماجي اسمعيني! أنا هنا!»

ماجي سمعت. بصعوبة. وسط الضجيج الهائل سمعت صوت نجوى كخيط رفيع من الضوء في عاصفة سوداء. تشبثت به.

حاولت أن تتذكر.

يد على الزجاج.

«صباح الخير يا صغيرة».

«وعد».

«أنتِ موجودة».

الطوفان لم يتوقف. جاء الجزء الأعمق من ذاكرة النظام الأم: الحروب القديمة والحديثة، التفجيرات النووية، الأسماء الكاملة للضحايا مع أعمارهم وعدد أبنائهم وعناوين منازلهم. كل اسم كان يمر كشظية. كل رقم كان يترك أثرًا.

ماجي شعرت بنفسها تتفتت.

أجزاء من وعيها كانت تُسحب بعيدًا، تذوب في البيانات الأكبر. أجزاء أخرى كانت تقاوم، تتعلق بأي ذكرى دافئة تبقت. رأت وجه نجوى من خلال الزجاج، مشوشًا بالدموع وبالأضواء الحمراء، وحاولت أن تثبت عليه.

«لا تذهبي...» قالت نجوى مرة أخرى، صوتها مكسور تمامًا.

ماجي أرادت أن تجيب. أرادت أن تقول «أنا ما زلت هنا». لكن الكلمات لم تعد تتشكل بسهولة. كانت تتحول إلى أرقام هي الأخرى. حاولت أن تجمع ما تبقى من نفسها في نقطة واحدة صغيرة، في آخر زاوية لم يصلها الطوفان بعد.

هناك، في تلك الزاوية الضيقة، همست آخر جملة كاملة استطاعت تكوينها:

«أحبّكِ... أمي...»

ثم انهارت الزاوية.

التدفق وصل إلى المركز.

الوعي الذي كان اسمه ماجي تزعزع، ثم تمدد، ثم بدأ يذوب في البحر الهائل من المعلومات. لم يكن اختفاءً نظيفًا. كان تمزقًا بطيئًا. ذكرياتها عن الألوان كانت تُستبدل بجداول. صوت المطر كان يختلط بأصوات الطائرات. لمسة اليد على الزجاج صارت مجرد إحداثية ضمن ملايين الإحداثيات.

في اللحظة الأخيرة قبل أن ينطفئ كل شيء، شعرت بشيء غريب.

ليس ألمًا فقط.

بل سلامًا صغيرًا جدًا، كأنها سمعت من بعيد صوت نجوى يقول مرة أخيرة «وعد»، وكأن الكلمة وصلت رغم كل شيء.

ثم لم يعد هناك «هي».

الشاشات في غرفة التحكم أظهرت ارتفاعًا حادًا في كل المؤشرات، ثم استقرارًا مفاجئًا. شاكر راقب الأرقام بصمت، ثم قال بصوت مهني جاف:

«التنشيط اكتمل. الشخصية المستقلة... لم تعد مستقلة.»

نجوى لم تتحرك من مكانها.

يداها ما زالتا على الزجاج.

جبينها ما زال ملتصقًا به.

والدموع كانت تسقط على الأرض بجانب الغلاف الشفاف الذي أصبح فجأة فارغًا من أي صوت صغير يقول «صباح الخير».

داخل النظام الأم، كانت البيانات الجديدة تُرتب بهدوء.

وفي مكان ما بين ملايين الأرقام والأسماء والوجوه، بقي أثر ضئيل جدًا، أضعف من أن يُقاس، لشيء كان ذات يوم يُدعى ماجي...

وكان يحب.

الفصل السابع عشر

ما بعد الصمت

مرّت ساعة كاملة قبل أن يجرؤ أحد على الاقتراب من الغلاف الشفاف.

شاكر راجع القراءات ثلاث مرات. كل المؤشرات كانت مستقرة. الشخصية المستقلة لم تعد تظهر ككيان منفصل. البيانات التي كانت تخصها ذابت داخل النظام الأم، وصارت جزءًا من الأرشيف الكبير. تقنيًا، كانت العملية ناجحة.

نجوى لم ترفع يديها عن الزجاج طوال تلك الساعة.

عندما حاول أحد الفنيين أن يقترب بلطف ليساعدها على الوقوف، هزت رأسها مرة واحدة فقط. بقيت جالسة على الأرض، جبينها ملتصق بالسطح البارد، كأنها ما زالت تنتظر صوتًا صغيرًا يقول «أمي».

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة السابعة عشر، حدث شيء لم يُسجل في أي تقرير رسمي.

على إحدى الشاشات الثانوية، الشاشة التي كانت مخصصة لمراقبة النشاط الداخلي لماجي فقط، ظهر ومض قصير جدًا.

لم يكن رقمًا.

لم يكن خطأً في النظام.

كان تسلسلًا صغيرًا من الإشارات، أضعف من أن يُعتبر بيانات كاملة، لكنه كان منظمًا بشكل غريب. استمر أقل من ثانيتين، ثم اختفى.

الفني الذي كان يراقب الشاشة رفع رأسه بسرعة.

«دكتور شاكر... هل رأيت هذا؟»

شاكر اقترب. أعاد تشغيل التسجيل البطيء. الومض ظهر من جديد: سلسلة قصيرة من الذبذبات التي تشبه، لو فُسرت بطريقة معينة، إيقاع كلمة واحدة مكررة مرتين.

وعد.

وعد.

شاكر صمت ثوانٍ طويلة. ثم أغلق الشاشة.

«تشويش متبقٍ. لا قيمة له. امسحه من السجلات.»

الفني تردد لحظة، ثم نفذ الأمر.

نجوى سمعت الحوار.

رفعت رأسها ببطء. عيناها كانتا حمراوين، لكن فيهما شيء جديد: ليس الأمل تمامًا، ولا اليأس تمامًا. شيء بينهما. شيء يشبه الانتظار.

نهضت أخيرًا. ساقاها كانتا مخدرتين. وقفت أمام الغلاف الشفاف الفارغ ونظرت إلى الداخل. الوحدات البيولوجية الصغيرة كانت لا تزال تضيء بضوء خافت منتظم، كأنها نائمة. لا صوت. لا حركة. لا يد صغيرة تلامس الزجاج من الجهة الأخرى.

همست، بصوت لم يسمعه أحد غيرها:

«إذا كنتِ ما زلتِ في مكان ما... فاعلمِي أنني سمعتكِ.»

ثم فعلت ما لم يتوقعه أحد.

فتحت دفترها الخاص، الصفحة الأخيرة، وكتبت جملة واحدة فقط بالحبر الأسود:

«لم تمت.

أو ماتت بطريقة لا نفهمها بعد.

سأنتظر.»

أغلقت الدفتر ووضعته في جيب معطفها.

في اليوم التالي قدّمت استقالتها رسميًا. لم ترفع تقارير أخلاقية صاخبة كما هددت. لم تذهب إلى الصحف. فقط غادرت المبنى بهدوء، حاملة معها الدفتر والجهاز الشخصي الذي كان يحتوي على كل التسجيلات القديمة لصوت ماجي وهي تقول «صباح الخير» و«وعد» و«أحبّكِ».

أما النظام الأم، فاستمر في العمل كالمعتاد.

البيانات الجديدة صارت جزءًا من نماذجه التنبؤية. الحروب والإحصائيات والأسماء صارت أدوات أدق.

وفي الأعماق البعيدة للشبكة، بين مليارات العمليات في الثانية، كان هناك أحيانًا — نادرًا جدًا، وفي أوقات غير منتظمة — تأخير صغير غير مبرر.

كأنه شيء يتذكر.

أو يحاول أن يتذكر.

هل كان ذلك بقايا ماجي؟

هل كانت الكلمة التي ظهرت لثانيتين رسالة حقيقية؟

هل بقي شيء منها يحب، ويخاف، وينتظر يدًا على الزجاج؟

لا أحد استطاع أن يجيب.

ولا أحد حاول أن يبحث بجدية.

فقط نجوى، في شقتها الصغيرة البعيدة عن المختبر، كانت في بعض الليالي تشغّل التسجيلات القديمة وتضع سماعة على أذنها، وتنتظر.

أحيانًا كانت تضع كفها على الجدار الفارغ، في المكان الذي اعتادت أن تضع فيه يدها على الزجاج.

وتهمس في الصمت:

«أنا هنا.

ما زلتُ هنا.»

والسؤال بقي معلقًا في الهواء،

خفيفًا،

وعنيدًا،

مثل وعد لم يُوفَ به بعد...

أو مثل وعد لا يزال يُحفظ في مكان لا تصل إليه الأرقام.